المحاضرة العاشرة: الألغاز.

تمهيد:

اللغز من الأجناس الأدبية الشعبية الأكثر رواجا وشيوعا بين أفراد الجماعة الشعبية، فهو قديم قدم الأسطورة والحكاية الخرافية، وهو ليس مجرد سؤال يراد منه الجواب، بل يعد عملا أدبيا أصيلا شأنه شأن بقية الأنواع الأدبية الشعبية المعروفة، ولعل هذه الأهمية تجعلنا نتساءل حول هذا المصطلح الغني في شكله ومضمونه لنبحث عن إجابات تشفي غليلنا وتشبع نهمنا العلمي.

أولا ـ مفهوم اللغز الشعبي:

1 ـ لغة: جاء في لسان العرب: ((ألغز الكلام وألغز فيه عمى مراده وأضمره على خلاف ما أظهره ... واللغز ما ألغز من كلام فشبه معناه ... واللغز الكلام الملبس، وقد ألغز في كلامه يلغز إلغازا إذا ورى فيه وعرض ليخفى، والجمع ألغاز، وتطلق اللفظة أيضا على جحر اليربوع، يقال: ألغز اليربوع إلغازا إذا حفر لنفسه طريقا تكون ذات جهتين أو أكثر))[1].

2 ـ اصطلاحا: اللغز جنس أدبي يصاغ في قالب شعري أو نثري، يتسم بالتعمية والغموض والالتواء في بنيته التعبيرية، يلقى في شكل سؤال عن شيء، تذكر صفاته البعيدة أو القريبة، أو بإسرار المعنى المراد الذي أبهمته التعمية في الكلام أو في الأسماء أو الأفعال[2]، وهو بهذا المعنى جنس أدبي قديم ((قدم الأسطورة والحكاية الخرافية، كما أنه كان يساويهما في الانتشار، ولم يكن اللغز في الأصل مجرد كلمات محيرة تطرح للسؤال عن معناها بين الأصحاب في تلك الأمسيات الجميلة))[3]، لذا يجب البحث فيه كعمل أدبي شعبي أصيل لا يقل أهمية وشأنا عن الأجناس الأدبية الشعبية الأخرى، ومن ثم فإن فهم اللغز وفك رموزه ليس بالشأن الهين، وليس في متناول الجميع، بل يتطلب مستو من الذكاء والتفكير والمعرفة هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فاللغز لا يصدر من عامة الناس، فهو لغة العارفين والحكماء، يختارون من الشيء صفاته ومميزاته المطابقة أو المشابهة لتثير شيئا من الالتباس لتكوين لغزهم في قالب هزلي أو جدي، ثم يطرحونه على الآخرين لعدة أهداف[4].

فالألغاز الشعبية كما يراها محمد المرزوقي هي تلك ((الكلمات المسجوعة أو المنظومة التي تلقى في المجالس العامة والخاصة، في قالب أسئلة يختبر بها الناس ذكاء بعضهم بعضا، والقاعدة فيها أن يورد اللغز في شبه سؤال منظوم أو مسجوع عن شيء تذكر صفاته البعيدة أو القريبة، ومن تلك الصفات يستطيع المسؤول بإعمال شيء من الفكر للاهتداء إلى موضوع السؤال))[5].

---

[1]ـ ابن منظور، لسان العرب، مادة (لغز)، مج 3، ص 376، 377.

[2]ـ رابح العوبي، أنواع النثر الشعبي، ص 85.

[3]ـ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 187.

[4]ـ طلال حرب، أولية النص، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1999، ص 154.

[5]ـ محمد المرزوقي، الأدب الشعبي في تونس، الدار التونسية، 1976، ص 42.

إذن، فمعاني الغموض والتعمية والالتباس والالتواء وما إلى ذلك من شبيهاتها في الدلالة، وهي تعد من الخصائص اللازمة للغز، باعتبار أن للألغاز غاية مقصودة عن طريق تعقيد الدوال في ذاتها[6].

ثانيا ـ نشأة الألغاز الشعبية وتطورها:

يقول "موريس بلومفيلد" عندما درس الألغاز البراهمية في خطاب ألقاه في مؤتمر "الفن العلم" سنة 1904م: ((إن اللغز نشأ منذ قديم الزمان، حين كان العقل البدائي يمرن نفسه على التلاؤم مع الكون الذي يحيط به، ذلك أنه كلما كانت الرؤية أكثر نضارة ازدادت الرغبة في إدراك ظواهر الطبيعة وظواهر الحياة وإدراك القوانين التي تحيط بالإنسان... فاللغز يشير إلى غموض الحياة وهو في الوقت نفسه يمثل إدراك العقل البكر))[7]، كما ذكر العالم الانتروبولوجي "جيمس فريزر" في دراسته التي جاءت بعنوان "الغصن الذهبي" عادة عند بعض القبائل الهند-صينية حين يجتمع أفرادها قبل موسم حصاد الأرز ويطرحون الألغاز لحلها، وعند حل كل لغز يصيح الجميع: "دع أرزنا ينمو في الجبال والسهول" ثم يمنع طرح الألغاز للحل في الفترة بين انتهاء موسم حصاد وموعد الزرع الثاني[8].

وقد أورد "فريزر" بعد ذلك تعليقا على أن هذه القبائل كانت ((تعد اللغز سببا من الأسباب التي يعود وراءها الخير، على أنه يعود بعد ذلك فيقر بحيرته وتعدم مقدرته على حل لغز اللغز، ليجعل عادة طرح الألغاز في مواسم معينة أو في مناسبات محددة عادة غريبة فعلا، وهي لم تفسر بعد، ولكنه يقترح تفسيرا لها، كأن تكون الألغاز في أصلها عوضا عن الكلمات المباشرة))[9].

وإذا تأملنا المناسبات التي تطرح فيها الألغاز فإننا نلاحظ أنها تطرح في مناسبات خاصة جدا، وهي التي يخشى فيها ((من حدوث أزمة، كأن يقف الزرع عن النمو، وإما أنها مناسبات تتعلق بمصير الفرد أو الشعب، فسقوط الأمطار ونمو النباتات والحصاد والختان والزواج والدفن كلها مناسبات كانت تطرح فيها الألغاز، ولابد أن الشعوب كانت تتساءل: هل سقط المطر المبارك، فينمو النبات أم يحدث جدب ومجاعة نتيجة عدم سقوطه؟ كل هذه الأمور كانت محط تساؤل الإنسان البدائي وكم كان يتمنى لو أن مصير هذه الأمور تقرر بالإيجاب فترتاح نفسه))[10]، وربما كان اللغز في هذه الحالة مشاركا لشعورهم، من حيث أنه ((يشترك مع هذه المناسبات في ظاهرة الغموض، فإذا توصل السامع إلى حل الألغاز فإن هذا الحل يكون ممتلكا لقدر من السحر من شأنه أن يؤثر في القوى المجهولة التي تتصرف في حل المشكلات الغامضة))[11].

ثالثا ـ وظائف الألغاز الشعبية:

---

[6]ـ ينظر: إبراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص 93.

[7]ـ نقلا عن: نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 178.

[8]ـ المرجع نفسه، ص 178.

[9]ـ المرجع نفسه، ص 179.

[10]ـ المرجع نفسه، ص 180.

[11]ـ المرجع نفسه، ص 180.

لقد قامت الألغاز بأدوار عظيمة في مجالات مختلفة في حياة الجماعة الشعبية التي يتداول فيها وينتشر، فهي تعد بمثابة القنوات الفضائية ومواقع التواصل الاجتماعي في زمننا هذا، فهي ((وسيلة أساسية للتربية، لأنه يعلم الأطفال والكبار معا كيف ينظرون إلى المشكلة من كل جوانبها، ثم يحتفلون بعد الكد والتفكير بحس فكاهي))[12]، وقد وسّع "عبد المالك مرتاص" من الدائر ة الوظيفية للغز، فهو بالنسبة له ليس ترفا ثقافيا وتسلية عابرة ((بل إننا نجد للغز دلالات عميقة تعني الحضارة والتاريخ وتعني التربية والتعليم، وقلما تكون غايته سطحية عابرة))[13]، وبصفة عامة نقول أن للغز وظيفتين أساسيتين، هما:

1ـ الوظيفة الترفيهية: كأن يلتقي مجموعة من الناس تنتمي إلى جماعة شعبية واحدة، يجيدون الممارسات التلغيزية، فيتداولونها من أجل الترفيه عن بعضهم البعض من مشاق الحياة الصعبة التي يعيشونها، وبالتالي التباري فيها والبحث عن حلول لها، وقد تستغرق هذه الممارسة التقليدية ساعات طويلة وجلسات وسهرات مطولة.

2 ـ وظيفة اختبار الذكاء: إذ يساهم اللغز في تنمية قدرات التفكير والإدراك والتخيل لدى الأفراد بصفة عامة، والأطفال بصفة خاصة، لذلك يلجأ إليه في الكثير من الأحيان المعلمون والمربون والنفسانيون.

رابعا ـ البناء الهيكلي العام لنص اللغز:

1 ـ المقدمة: تسمى أيضا بالافتتاحية لأن بها يفتتح نص السؤال، وعادة ما تكون المقدمة طريفة، كما نجد دائما صاحب اللغز يضع لنفسه مرتبة أعلى تفوق المستمعين، وهذا ما يزرع روح التحدي وحب المغامرة في نفوسهم.

2 ـ صيغة السؤال: يعد أهم عنصر في البنية التركيبية للغز الشعبي، وإن صح القول فهو نص اللغز في حد ذاته، ويتشكل من عنصرين أساسيين:

أ ـ الموضوع: وهو ما يرمز إليه بالمثل المستعار والمطلوب هو الجواب عن السؤال المطروح، وقد أسماه أحد الباحثين بـ "نواة الشمس"، أي المتعلق بموضوع السؤال أو البرهان على جواب السؤال.

ب ـ الخطاب الإخباري أو الوصفي: يتضمن العناصر اللغوية التي يدلى بها السؤال حول الموضوع، ويسمى أيضا بـ "النواة الوصفية"، وقد تختلف بنيته من لغز لآخر، وتتمثل قيمته الفنية في أنه يكسب نص اللغز طابعا وصفيا إخباريا عن الموضوع، وقد تنتهي نصوص الألغاز بعبارة تساؤلية مثل: ما هو؟ ... كما تغيب الصيغة التساؤلية من نهاية النص صراحة، ولكن تشم رائحتها من طبيعة الجنس أي أن اللغز يطرح للسؤال عن الشيء[14].

---

[12]ـ المرجع السابق، ص 202.

[13]ـ عبد المالك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية، دراسة في الغاز الغرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 27.

[14]ـ محمد سعيدي، الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق، ص 105.

3 ـ الجواب: ينحصر عادة الجواب عن اللغز المطروح في كلمة واحدة، أما في حالة عجز المستمعين عن فهم الجواب وعدم قدراتهم في التوصل إلى ربط العلاقة بين ما جاء في الخطاب الوصفي الإخباري وبين الموضوع المجيب عنه، فإن المجيب يضيف تعليقا مختصرا أو شرحا بسيطا ليوضح الإجابة نوعا ما أو ليكشف له عما تحمله من رموز أو دلالة الاستعارة وطبيعة الأوصاف الحقيقية والمجازية وعلاقتها بالسؤال والبرهنة عليها من خلال موضوع الجواب[15].

خامسا ـ خصائص الألغاز الشعبية:

1 ـ الإيقاع الصوتي: لقد اهتمت الجماعة الشعبية في إبداعها للغز الشعبي باختيار ألفاظه وتقطيع الجمل، بغية تحسين الصياغة وتنويع التراكيب لإحداث معادلة صوتية تنبعث منها موسيقى يضفي على التراسل الشعبي نوعا من الجمال الأدبي والفني الذي يسهل عملية الحفظ والتناقل بفضل الانسجام والتناسق بين أجزاء هذا الشكل الأدبي الشعبي المتكون من وحدات متقاربة متناغمة، تضمن بقاءه، وتكسبه بذلك القوة الفنية والجمالية، وتترك أثرها في الأذن والنفس ((ومن له ادني بصيرة يعلم أن الألفاظ في الأذن لذيذة كنغمة أوتار، وصوتا منكرا كصوت الحمار، وأن لها في الفم حلاوة كحلاوة العسل ومرارة كمرارة الحنضل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم))[16].

2 ـ تنوع الصور التعبير عن الموضوع الواحد: يعني هذا أن بعض موضوعات الألغاز الشعبية بما فيها الأشياء والحيوانات وغيرها تلفت انتباه مبدع اللغز فيضع فيها العديد من الألغاز، وربما يعود هذا لتوضيح أهميتها وقيمتها وما لها من تأثير في حياة الجماعة الشعبية، أو ربما لـ ((تعدد منشيء اللغز واختلاف أمكنة ظهورها))[17].

3 ـ الرمزية: يحمل اللغز الشعبي بين طياته سؤالا يحيل إلى جواب محدد، ولكي نصل إلى كنهه لابد من فهم الخطاب الوصفي الإخباري، الذي بدوره يشرح لنا موضوع اللغز وبالتالي القدرة على كشف المعنى الخفي والموضوع المستتر، ولكنه ليس بمقدور أي أحد أن يفك الرموز التي يبنى عليها، لما يمتاز به الإلغاز من جمالية الأسلوب، الذي يعتمد إلى حد كبير على ألوان بيانية كثيرة ومتعددة.

4 ـ التكرار: يضفي التكرار نزعة جمالية للبنية الشكلية والفنية للغز الشعبي، فضلا عن إيضاح المعنى وتقريره والإلمام بأطرافه إلماما لا يخلو من طلاوة صوتية وتوقيع، فلا جرم أن نقر فعلا بأن هذه الخاصية تعتبر من الأداء الفني الجميل، الذي يعتمد على اختيار الألفاظ والدقة في ترتيبها وترديدها، هذا إذا كان الهدف منها تحقيق ولو فائدة من الفوائد التي بني على أساسها اللغز الشعبي، وإلا أصبح مجرد كلام مطولا لا طائلة ترجى منه.

---

[15]ـ المرجع السابق، ص 105، 106.

[16]ـ ابن الأثير، المثل السائر، تح: محمد محي الدين، مطبعة عبد الحميد، القاهرة، 1939، ص 150.

[17]ـ رابح العوبي، أنواع النثر الشعبي، ص 107.

5 ـ طابع الحكي الشعبي: إذ يقوم المبدع الشعبي ببناء ألغازه وفق بعض العناصر المستخدمة في الحكي الشعبي، كاستخدام تقنية الحوار أو السرد، مما يمنح بعدا حكائيا لها.

خاتمة:

نقول في الأخير: يعد اللغز الشعبي واحدا من أبرز الفنون الشعبية الشفهية التي عرفتها منطقة المغرب العربي، وقد أودعت فيها الجماعة الشعبية المغاربية عصارة أفكارها، وزبدة أحاسيسها وتصوراتها، وخلاصة مواقفها وسلوكاتها إزاء الكون الذي يحيط بها، وقد استمدت مادته من عمق واقع الحياة اليومية وتجاربها المختلفة.